صِدْق الْمُعامَلة والإمتناع عن الغِشّ

حثَّ الرسولُ الكريمُ صلّى الله عليه وسلّم التجّارَ على الصدق في المعاملات ورغّبهم فيه، كما روي عن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: (التّاجِرُ، الصَّدُوقُ، الأمِينُ، مَعَ النَّبيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَداءِ.)[٥٦٠]

وروي عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (التّاجِرُ، الصَّدُوقُ، تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيامَةِ.)[٥٦١]

أمّا بالنسبة للتاجر الغشّاش، فإنّ الله سبحانه وتعالى توعّده بعذاب شديد بقوله: (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إذا اكْتالُوا عَلَى النّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإذا كالُوهُمْ أوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. ألا يَظُنُّ أولَئِكَ أنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ.) (المطففين ٨٣/١-٦)

كذلك نهى الله سبحانه وتعالى التجّارَ عن الكذب، وتوعّد الكاذبين منهم بعذاب أليم، بقوله: (إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً، أولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ في الآخِرَةِ، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلا يَنْظُرُ إلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذابٌ أليمٌ.) (آل عمران ٣/٧٧)

وعمل الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بهدي القرآن الكريم، وطبّق أوامره ونواهيه، ونهى التجّار عن الكذب والحلف لترويج سِلَعهم، كما روي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخرج إلينا، وكنّا تجّاراً، وكان يقول: (يا مَعْشَرَ التُّجّار! إيّاكُمْ وَالْكَذِبَ.)[٥٦٢]

٥٦٠ــ رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

٥٦١ــ رواه الأصبهاني وغيره.

٥٦٢ــ رواه الطبراني بإسناد لا بأس به إن شاء الله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: (الْحَلِفُ مَنْفقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ.)[٥٦٣]

وعن قتادة رضي الله عنه، أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يقول: (إيّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ في الْبَيْعِ! فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ، ثُمَّ يَمْحَقُ.)[٥٦٤]

إنّ دَوْر الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يتوقف عند الوعظ والتحذير، بل تعدّاه إلى الرقابة العمليّة على التجار ومعاملاتهم، والبضائع وجودتها وعدم جودتها، والأسعار، والموازين، والمكاييل، فكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يطوف في الأسواق[٥٦٥]، ويتفقّد البضائع المعروضة للبيع ليمنع التجّار من غشّ المستهلِكين، كما روى أبو هريرة: (أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرَّ على صُبْرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصبعه بَلَلاً، فقال: يا صاحب الطعام! ما هذا؟

قال: أصابته السماء يا رسول الله!

فقال: أفلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعامِ حَتَّى يَراهُ النّاسُ! ثمّ قال: مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنّا.)[٥٦٦]

وحيث أنّه لم يكن باستطاعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يكون موجوداً في السوق كلّ يوم، فقد ولّى عبد الله بن سعيد بن أُحَيْحة بن العاص على سوق المدينة، وكان كاتباً، وأمره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يعلّم الكِتابَ بالمدينة.[٥٦٧]

وبعد فتح مكّة ولّى الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم سعيدَ بن سعيد بن العاص بن أُمَيّة على سوق مكّة، وهكذا فعل الخلفاء من بعده، فإنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل على سوق المدينة، الشِّفاءَ بنت عبد الله، أم سليمان بن أبي حثمة،

٥٦٣ــ رواه البخاري ومسلم؛ وأبو داوود، الاّ أنّه قال: "مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ".

٥٦٤ــ رواه مسلم؛ النسائي؛ ابن ماجة.

٥٦٥ــ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٠٤.

٥٦٦ــ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج ٤، ص ٧٨-٧٩؛ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٣٠٤؛ السمهودي، وفاء الوفا، ج ٢، ص ٧٥٦.

٥٦٧ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٢، ص ٢٣٣.

وسمراءَ بنت نهيك الأسدية، وكانت تمرّ في الأسواق، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتضرب الناس على ذلك بسوط معها.[٥٦٨]

كذلك استعمل عمرُ بن الخطاب، ابنَ السائب بن يزيد على سوق المدينة.[٥٦٩]

واستعمل عثمانُ بنُ عفّان، الحارثَ بنَ الحكم، على سوق المدينة، ليراعي أمر المثاقيل والموازين، وجعل له كلّ يوم درهمين، وقال لأهل المدينة: إذا رأيتموه سرق شيئاً، فخذوه منه.

ويروى عن الحارث هذا، أنّه تسلّط يومين أو ثلاثة على باعة النَّوَى، واشتراه لنفسه، فلمّا رُفِعَ ذلك إلى عثمان، أنكر عليه وعزله، وقال لأهل المدينة: إنّي لم آمره بذلك.[٥٧٠]

وممّن تولّى سوق المدينة، سليمان بن بلال، وكان مُحَدِّثاً، ثِقة، وكان كاتب يحيى بن سعيد.[٥٧١]

في الوقت الّذي راقب الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم السوقَ، فإنّه عمل على حرّية التجارة، وحريّة الأسعار ضمن حدود المعقول، وفي الأحوال الإعتيادية، إذ لم يتدخّل صلّى الله عليه وسلّم في تحديد أسعار الحاجيّات، كما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: "غلا السِّعر على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا: يا رسول الله! سَعِّرْ لنا!

فقال: (إنَّ اللهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، الْقابِضُ، الْباسِطُ، الرَّازِقُ، وَإِنِّي لأَرْجُو أنْ أَلْقى رَبِّي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بمَظْلَمَةٍ في دَمٍ وَلا مالٍ.)[٥٧٢]

رفض الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم أن يحدِّد السعر، لأنّه رأى بثاقب حكمته وبُعْد نظره، أنّ تحديده لأيّ سعر كان، سيصبح سُنَّة يُقتَدى بها من بعده لا يستطيع المسلمون تغييره مهما يكن من أمر، وبهذا يُضْرَب الاقتصاد ويتجمّد.

٥٦٨ــ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ص ٣٠٧-٣٠٨.

٥٦٩ــ أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، ص ص ٦٤٠-٦٤١.

٥٧٠ــ الدياربكري، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٢٦٨.

٥٧١ــ الفسوي، كتاب المعرفة والتاريخ، م ١، ص ٤٢٨.

٥٧٢ــ ابن حبّان، السيرة النبوية، ص ٣١٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٤، ص ٩٩؛ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٣٠٥.

وهذا العمل من الرسول الكريم لا يعني أنّ أمور السوق وأسعار الحاجيّات في الدولة الإسلاميّة تُركت هملاً دون رقابة، بل على العكس، فإنّ وُلاة الأمور في الدولة الإسلامية، راقبوا السوق، وشدَّدوا النكير على من شذَّ، أو غشَّ من التجّار، وأمروا من لم يبع حسب سعر السوق أن يبيع بسعر السوق، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحاطب بن أبي بلتعة، إذ مرَّ به وهو يبيع زبيباً له في السوق، فقال له: إمّا أن تزيد في السّعر، وإمّا أن ترفع من سوقنا، لأنّه كان يبيع بالدرهم أقلّ ممّا كان يبيع به أهل السّوق.[٥٧٣]

وروى ابن زَبَالة، عن القاسم بن محمد: "أنّ عمر بن الخطاب مَرَّ بحاطب بن أبي بلتعة، وهو بسوق المُصلَّى، وبين يديه غرارتان فيهما زبيب، فسأله عن سعره، فسعَّر له مُدَّيْن بدرهم، فقال عمر: قد حُدِّثتُ بعِيرٍ مُقبلة من الطائف، تحمل زبيباً، وهم إذا وضعوا إلى جَنبك غداً، اعتبروا بسعرك، فإمّا أن ترفع في السِّعر، وأمّا أن تُدخل زبيبك في البيت، فتبيعه كيف شئت، فلمّا رجع عمر حاسَبَ نفسه في الظُّهر، ثمّ خرج، فأتى حاطباً في منزله، فقال: إنّ الّذي قلت لك ليس بعزيمة منّي، ولا قضاء، وإنّما هو شيء أردتُ به الخير، فحيث شئتَ فبعْ."[٥٧٤]

بقي أن نذكر أنّ سوق المدينة في أيّام الرسول صلّى الله عليه وسلّم وفي أيّام الخلفاء الراشدين كان سوقاً عالميّاً، مفتوحاً أمام التجار من جميع البلاد بما فيها بلاد الروم والفرس، كما حدّث سيمويه البلقاوي، وكان نصرانيّاً، شمّاساً، فأسلم، ولقي سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحسن إسلامه، وعاش عشرين ومائة سنة.

حدّث سيمويه، قال: رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم، وسمعت من فيه إلى أذني، وحملنا القمح من البلقاء إلى المدينة، فبعنا، وأردنا أن نشتري تمراً من تمر المدينة، فمنعونا، فأتينا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأخبرناه.

٥٧٣ــ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ص ٣٠٧-٣٠٨.

٥٧٤ــ السمهودي، وفاء الوفا، ج ٢، ص ٧٥٧.

فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للّذين منعونا: أما يكفيكم رخص هذا الطعام فيكم بغلاء هذا التمر الذي يحملونه! ذروهم يحملونه!"[٥٧٥]

وقال الصحابيّ، كعب بن مالك: "بينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطيٌّ من أنباط الشام ممّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة..."[٥٧٦]

وروى ابن السائب بن يزيد، قال: "كنت عاملاً على سوق المدينة في زمن عمر. فكُنّا نأخذ من النَّبَط العُشْر.

وعن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: كان عمر يأخذ من النَّبَط: من الزيت والحنطة، نصف العُشْر. لكي يكثر الحمل إلى المدينة، ويأخذ من القطنية العُشْر."[٥٧٧]

وفي نفس الوقت الّذي كان التجار من خارج المدينة يأتون للإتّجار في سوقها، كان التجار المسلمون من المدينة يخرجون للإتّجار في بلاد الروم والفرس كما قدّمنا من قبل. وروى إسماعيل بن بشر بن عبد الله عن أبيه، قال: "أتينا رجلاً من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأرض الروم يقرب ثُمَيْراً، فقلت: لقد عجلتم العام بالثُّمَيْر! فقال: هذا ممّا تمَّرنا عام أوّل."[٥٧٨]

ممّا تقدّم نستنتج، أنّ أمر الدّين والمجتمع لا يقوم إلاّ بالاقتصاد، لهذا نرى أنَّ الله سبحانه وتعالى قرَنَ بين الصلاة والزّكاة في أكثر من ثلاثين آية في القرآن الكريم، كما قدّمنا.

أمَرَ القرآن الكريم وعَمِلَ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم على دفع عجلة الاقتصاد في المجتمع الإسلاميّ إلى الأمام بحَثِّ المسلمين المالكين للأموال بإنفاق المال في سبيل الله وعدم كنزه، وتوعّد الكانزين الذهب والفضة بعذاب أليم، كما

٥٧٥ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٢٤٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج ٤، ص ٩٩.

٥٧٦ــ ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ج ٢، ص ص ٢٢٥-٢٢٦.

٥٧٧ــ أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، ص ص ٦٤٠-٦٤١..

٥٧٨ــ ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني، م ٥، ص ٣٣٩، حديث ٢٩٠٠.

قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها في سَبيلِ اللهِ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْها في نارِ جَهَنَّمَ، فَتُكْوَى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هَذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ، فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ.) (التوبة ٩/٣٤-٣٥)

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، وعد الله سبحانه وتعالى المنفقين في سبيله بأفضل الثواب في الآخرة، بقوله جَلَّ وعلا: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ، في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ، وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ، وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ.) (البقرة ٢/٢٦١)

هاتان الآيتان وغيرهما في القرآن الكريم تَحُثُّ المسلمين من بين ما تحثُّهم على توظيف أموالهم في التجارة والزراعة والصناعة لإنعاش الاقتصاد وإيجاد عمل لفقراء المسلمين يعتاشون منه بكرامة، لأنّ كنز المال يسحبه من السوق، ويوقف السيولة النقديّة في مرافق الدولة كلّها، فيضعف الاقتصاد وينهار.

والرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بالإضافة إلى القرآن الكريم شجّع المسلمين على إعادة توظيف أموالهم في السوق، بقوله: (مَنْ باعَ داراً أوْ عَقاراً فَلَمْ يَجْعَلْ ثَمَنَهُ في مِثْلِهِ كانَ قَمِناً أنْ لا يُبارَكَ فِيهِ.)[٥٧٩]

٥٧٩ــ ابن ماجة، سنن، ج ٢، ص ٨٣٢، حديث ٢٤٩٠ و ٢٤٩١؛ الدارمي، سنن، ج ٢، ص ٢٧٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج ٤، ص ص ١١٠-١١١؛ الفسوي، المعرفة والتاريخ، م ١، ص ٢٩٤.

اختلاف الأُمَّة وانقسامها

وسارت الأمور في الدولة الإسلاميّة الفتيّة على خير ما يرام، وانتقلت من نصر إلى نصر طيلة عشر سنوات تحت قيادة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وواحد وعشرين عاماً تحت قيادة أبي بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان، ولكن للأسف الشديد تغيَّرت نفوس قسم من الرعيّة في أواخر أيّام عثمان، حتى ثار عليه بعض الغوغاء من شُذّاذ الآفاق، وقتلوه في بيته، وهو يتلو كتاب الله، وقتَلة عثمان، ومن شايعهم، لم يرضَوا بحكم الإمام، العادل، عليّ بن أبي طالب، وثاروا عليه، وسارت الأمور من سيِّءٍ إلى أسوأ، وكثرت الثورات والقلاقل والفتن وظهرت الفِرَق والأحزاب الدينية والسياسية، في العالم الإسلامي، من خوارج، وشيعة، ومرجئة، وقدَريَّة، وزنادقة، على اختلاف ألوانهم، وبهذا الفعل خالفوا قولَ الله سبحانه وتعالى: (وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.) (الروم ٣٠/٣١-٣٢)

وأصبحوا كما قال الله سبحانه وتعالى: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.) (المؤمنون ٢٣/٥٣)

وهكذا خَلَفَ بعد الجيل الأوّل، خير القرون، خَلْفٌ أضاع الصّلاة واتَّبع الشهوات، فأصابهم ما أصابهم من الظلم والحرمان، كما قال الله سبحانه وتعالى: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً، إِلاّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً.) (مريم ١٩/٥٩-٦٠)

تفرّق الناس، وتقطّعوا أمرهم بينهم، فأخذ الحكّام يجورون، والناس تشكو من جَوْر حكّامها، وذات يوم سمع عبد الملك بن مروان، الخليفة الأمويّ، بعض الناس يشْكون من حكمه ويطالبونه أن يسير فيهم بسيرة أبي بكر وعمر بن الخطاب،

فارتقى المنبر، وقال مخاطباً الناس: "أنْصِفونا يا معشر الرّعيَّة! تريدون منّا سيرة أبي بكر وعمر! ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعيَّة أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كُلاً على كلٍّ."[٥٨٠]

وكذلك قال سالم بن عبد الله بن عمر، قال لي عمر بن عبد العزيز: أكتُب إليَّ بسُنَّة عمر!

قال: قلت: إنَّك إن عملت بما عمل عمر، فأنت أفضل من عمر، إنَّه ليس لك مثل زمان عمر، ولا رجال مثل رجال عمر."[٥٨١]

أي أنّه لا قيمة للسُّنَن مهما شَرُفت إذا لم يكن هناك رجال يطبِّقونها ويحافظون عليها، كما نبَّهنا الله سبحانه وتعالى، ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

إنّه لا يوجد أيّ شيء في الدنيا مهما عَظُمَ وغلا، يعادل الرّجال، المؤمنين، الصالحين، المخلصين، كما عبَّرَ عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مهتدياً بهدي القرآن الكريم، وبهدي الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، لمّا قال ذات يوم لبعض أصحابه: تَمَنَّوْا!

فقال رجل: أتَمَنّى لو أنّ لي هذه الدار مملوءة ذهباً أنفِقه في سبيل الله عزَّ وجَلَّ.

ثمّ قال: تَمَنَّوْا!

فقال رجل: أتَمَنّى لو أنَّها مملوءة لؤلؤاً وزَبَرْجَداً أو جَوْهَراً أنْفِقه في سبيل الله عزَّ وجَلَّ وأتصدّق به.

ثمّ قال: تَمَنَّوْا!

فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين!

فقال عمر: أتَمَنّى لو أنَّ هذه الدّار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجرّاح.[٥٨٢]

إنّ عمريعرف قيمة الرجال العظام وأثرهم في بناء الأمم والمجتمعات الصالحة، فهو تمنّى داراً مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجرّاح، لأنّ رسول الله صلّى الله

٥٨٠ــ ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٩.

٥٨١ــ ابن أبي شيبة، المصنّف.

٥٨٢ــ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١، ص ص ٣٦٧-٣٦٨.

عليه وسلّم قال عن أبي عبيدة: (إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أمِيناً، وَإنَّ أمِينَنا أيّتُها الأمّةُ أبو عبيدة بن الجرّاح.)[583]

مرَّةً أخرى نرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرف قيمة وأهميّة الرجل المؤمن المخلص، عندما سمع بموت عمير بن سعد بن عبيد بن النعمان، وكان عمر بن الخطاب ولاّه حمص. شَقَّ موت عمير بن سعد على عمر وترحّم عليه.
فقال عمر لأصحابه: "لِيَتَمَنَّ كلّ رجل منكم أمْنِيَّة!
فقال رجل: يا أمير المؤمنين! وددت أنّ عندي مالاً فأعتق لوجه الله كذا وكذا.
وقال آخر: وددت أنّ عندي مالاً فأنفق في سبيل الله.
وقال آخر: وددت أنّ لي قوّة فأمِيح (أغترف الماء) بدَلْوٍ لِحُجّاج بيت الله.
فقال عمر بن الخطاب: وَدِدْتُ أنّ لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به في أعمال المسلمين."[584]

لا بأس في إيراد قصّة عمير بن سعد هنا، لنعرف لماذا تمنّى عمر بن الخطاب رجلاً مثل عمير بن سعد: "إنّ عمير بن سعد بعثه عمر على حمص، فمكث حَوْلاً لا يأتيه خبره، فكتب إليه: أقبلْ بما جَبَيْتَ من الفَيْء! فأخذ جرابه وقصعته، وعلّق إداوته، وأخذ عَنَزَتَهُ[585]، وأقبل راجِلاً. فدخل المدينة، وقد شَحُبَ، واْغْبَرَّ، وطال شعره. فقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين! فقال: ما شأنك؟ قال: ألَسْتُ صحيحَ البدن؟ معي الدّنيا. فظنَّ عمر أنّه جاء بمال، فقال: جئت تمشي؟ قال: نعم. قال: أمَا كان أحد يتبرَّع لك بدابَّة؟ قال: ما فعلوا، ولا سألتهم. قال: بِئْسَ المسلمون! قال: يا عمر! إنّ الله نهاك عن الغِيبَة. فقال: ما صنعت؟ قال: الّذي جَبَيْتُهُ، وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء، لأتيتك به. قال: جَدِّدوا لعمير عهداً! قال: لا عملتُ لك ولا لأحد، قلتُ لنصرانيٍّ: أخْزاكَ الله.

583ـ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١، ص ٣٦٦؛ الحديث أخرجه البخاري ومسلم في مناقب أبي عبيدة.
584ـ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١، ص ٧٠١.
585ـ العنزة: عصا في قدر نصف الرمح أو أكبر يتوكأ عليها.

وذهب إلى منزله على أميال من المدينة. فقال عمر: أراه خائناً؛ فبعث رجلاً بمائة دينار، وقال: إنزلْ بعمير كأنّك ضيف، فإن رأيت أثر شيء، فأقبل! وإن رأيت حالاً شديدة؛ فادفع إليه هذه المائة. فانطلق، فرآه يَقْلِي قميصه. فسلَّمَ. فقال له عمير: إنزلْ! فنزل. فساءله، وقال: كيف أمير المؤمنين؟ قال: ضرب ابناً له على فاحشة، فمات.

فنزل به ثلاثاً، ليس [لهم] إلاّ قُرْص شعير يَخْصُّونه به، ويَطْوُون (يبيتون بالجوع). ثمّ قال: إنَّك قد أجعتنا. فأخرج الدنانير، فدفعها إليه. فصاح، وقال: لا حاجة لي بها، رُدَّها عليه! قالت المرأة: إن احتجت إليها، وإلاّ ضعها مواضعها! فقال: ما لي شيء أجعلها فيه. فشَقَّت المرأة من دِرْعها، فأعطته خِرقة، فجعلها فيها؛ ثمّ خرج يقسمها بين أبناء الشهداء.

وأتى الرجلُ عمرَ، فقال: ما فعل بالدَّهب؟ قال: لا أدري. فكتب إليه عمر يطلبه. فجاء، فقال: ما صنعت الدّنانير؟ قال: وما سؤالك؟ قدَّمتها لنفسي. فأمر له بطعام وثوبين. فقال: لا حاجة لي في الطعام، وأمّا الثَّوْبان، فإنَّ أمَّ فلان عارية. فأخذهما ورجع."[٥٨٦]

أرأيتم أيّها الأخوات والإخوة! لماذا تمنّى عمر بن الخطاب رجلاً مثل عمير بن سعد ليُوَلّيه أمور الناس؟ هكذا يجب أن يكون الرّجال.

وقال عمر بن عبد العزيز لإياس بن معاوية: دُلَّني على قوم من القُرّاء أوَلّهم!

فقال له: إنّ القرّاء ضربان: ضَرْب يعملون للآخرة، وأولئك لا يعملون لك، وضرب يعملون للدنيا، فما ظنّك بهم إذا مكّنتهم منها؟

فقال: ما أصنع؟

قال: عليك بأهل البيوتات الّذين يستحْيون لأنسابهم، ويرجعون إلى أعراقهم، فوَلّهم.[٥٨٧]

٥٨٦ــ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ص ٥٦٠-٥٦٢.

٥٨٧ــ التوحيدي، البصائر، ج ١، ص ٦٩؛ في الجزء الثاني ص ٢٦، القصة تنسب الى الحسن البصري.

وعندما تتغيَّر الرعيّة يتغيَّر الحاكم، لأنّه إذا صارت الرّعيَّة تُزَيِّن للحاكم سوء عمله، يتصرَّف الحاكم معهم تصرُّفاً مطلقاً.

والمحاورة التالية بين شقيق بن إبراهيم البلخي، الزاهد، وبين سفيان الثوري، تبيِّن لنا من أين يأتي الفساد إلى الأمّة.

"قدِم شقيق بن إبراهيم الكوفة يريد مكّة، فلقيه سفيان الثوري، فقال له: أنت الذي تدعو إلى التَّوَكُّل وبمنع المكاسب؟

فقال شقيق: ما قلت كذا!

قال سفيان: إيش قلت؟

قال: حلالٌ بَيِّنٌ، وحرام بَيِّنٌ، ومتشابه فيما بين ذلك. ولكن دخلت الآفة من الخاصّة على العامّة، وهم خمس طبقات: فأوَّلهم العلماء، والثاني الزُّهّاد، والثالث الغُزاة، والرابع التجّار، والخامس السلطان.

فأمّا العلماء، فهم ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا ديناراً، ولا درهماً، وإنّما ورَّثوا العِلْم، وإذا كان العالِم، طامعاً، جامعاً، فالجاهل بمن يقتدي؟

وأمّا الزُّهّاد، فهُمْ ملوك الأرض، فإذا كان الزاهد يرغب فيما في أيدي الناس، فالراغب بمن يقتدي؟

وأمّا الغُزاة، فهم أضياف الله في أرضه، فإذا كان الغازي يحبُّ الخُيَلاء، والتَّصدُّر في المجالس، فمتى يَغْزُو؟

وأمّا التجّار، فهم أمناء الله عزَّ وجَلَّ في أرضه، فإذا كان التاجر الأمين، خائناً، فالخائن بمن يقتدي؟

وأمّا السُّلطان، فهم الرُّعاة، فإذا كان الرّاعي هو الذئب، فالذئب ما يَجِدْ يأكلْ.

يا سفيان! لا تجمعنَّ منها إلاّ قدر مقامك فيها. فقام سفيان، ولم يردَّ شيئاً."[٥٨٨]

وتشرذمت الأمَّة الإسلامية، واستمر تشرذمها حتى يومنا هذا، فهناك ٥٦ دويلة إسلامية لا تساوي شروى نقير في المجال السياسي العالمي، وسيستمر هذا التشرذم وسيزداد سوءً إلاّ إذا عاد المسلمون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم وطبقوهما تطبيقًا عمليًّا فعَّالاً.

٥٨٨ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٣٢٢.

الخاتمة

لقد مرَّ على المسلمين زمن طويل وهم يعرفون فضائل الإسلام تاريخاً ونظرية، ويتغنَّوْن بمحاسنها ليل نهار، ولكن للأسف الشديد دون أن يمارسوا هذه الفضائل. لقد آنَ الأوان للمسلمين أن ينتقلوا من مرحلة النظريات إلى مرحلة التطبيق العملي ويمارسوا الإسلام ممارسة فعلية في جميع مناحي الحياة، الشخصية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، إن أرادوا أن ينالوا خَيْرَي الدُّنيا والآخرة، كما فعل السلف الصالح.

هذا هو سبيل الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين في بناء المجتمع الصالح، والدولة الراشدة، المؤسّسة على العدل، والحريّة، والمساواة، ومن يتَّبع غير سبيل المؤمنين، فهو من الضّالين، كما قال الله سبحانه وتعالى: (وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً.) (النساء ٤/١١٥)

المجتمعات الصالحة، والدُّوَل، المؤسّسة على أساس الحريّة، والعدالة الاجتماعية، والمساواة، لا تبنى بالكلام، والمهاترات، والجدل العقيم، بل بالوحدة، والعمل المخلص البنّاء، والصِّدق في المعاملة، على أساس القرآن الكريم والسُّنَّة النبويّة المطهّرة.

على المسلمين أن يتكاتفوا، ويعملوا على تحقيق ما يتّفقون عليه، ويغُضّوا النظر عمّا يختلفون فيه، لأنّ ما يتَّفق عليه المسلمون أكثر بكثير ممّا يختلفون فيه.

لقد كان المسلمون الأوائل أقليّة مسلمة مؤمنة في وسط أغلبية غير مسلمة في جميع البلاد التي حرَّروها من نير الطغاة من الأكاسرة والقياصرة، ولكنّهم لم يتقوقعوا، وينكمشوا على أنفسهم، وينعزلوا عن الجماهير غير المسلمة يردِّدون

لأنفسهم نصف آية من القرآن الكريم، يخادعون أنفسهم بها، كما يفعل كثير من مسلمي اليوم: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاس)،
وينسون أو يتناسون النصف الثاني من الآية الكريمة الّذي يفرض ويشترط عليهم العمل للحصول على هذه الخيريّة، وهو: (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ.)
وهل هناك بين المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل فعّال؟ الجواب معروف.

عاش المسلمون الأوائل حياة مثاليّة تمثَّل بها غير المسلمين ودخلوا في دين الله أفواجاً.
وكثيراً ما نسأل الّذين يدخلون الإسلام من الأمريكيين، لماذا أسلمتم؟ أو ما هو سبب إسلامكم؟ والجواب يكاد يكون واحداً، وهو: لقد قرأنا القرآن، أو صحيح البخاري، أو مسلم، أو السيرة النبوية بالإنكليزية، فتأثرنا بها، وأسلمنا. ولأسفنا الشديد، لم نسمع واحداً للآن، يقول: أسلمت لأنّ لي جاراً أو صديقاً مسلماً تأثرت به أو بطريقة حياته الإسلاميّة.

فأين نحن اليوم من ذلك الجيل الصالح الّذي أسّس وبنى وشيّد الدولة الإسلاميّة الراشدة؟
وهل نستطيع أن نعيد إلى الإسلام مجده كما فعلوا؟

نذكِّر الأخوة المسلمين بالآيات الكريمة التالية: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ.) (التوبة ١٠٥/٩)
وقال تعالى أيضاً: (وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصّابِرِينَ.) (الأنفال ٤٦/٨)

تنازع المسلمون، ففشلوا، فذهبت ريحهم، ولكنهم عادوا وأمسكوا بزمام أمورهم، وهبت رياحهم، رياح الإيمان هادئة ليّنة بادئ الأمر في تونس، لكنها سرعان ما هاجت وعصفت في مصر كنانة الله في أرضه، فأطاحت بأبي هول جثم على

صدور أبناء وبنات الشعب المصري العظيم طيلة ثلاثين عامًا، وارتَدَّت غربا لتطيح بمسخ مأفون ناء بكلكله على صدور أبناء الشعب الليبي العظيم لمدة تزيد على أربعين عامًا، لا يرعى فيهم إلاً ولا ذِمَّة، كذلك اشتعلت نار الثورة والتحرُّر في اليمن، والحبل على الجرَّار، "ولينصرنَّ اللهُ من ينصره."

إنّ بناء المجتمعات الإنسانيّة الصالحة والدّوَل الّتي تحكم بالعدل والمساواة لا يتمّ بالأماني، والأحلام، واجترار الماضي، لأنّه لا تستطيع أمّة أن تدخل المستقبل وهي تنظر إلى الخلف، إذن والحالة هذه على الأمّة الإسلاميّة لكي تنهض من غفوتها أن تضع القرآن الكريم والسُّنّة النبوية المشرّفة أمامها، كما فعل الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم والصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان وليس خلفها كما يفعل مسلمو العصر الحاضر.

لقد كافح الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وجاهد من أجل إقامة الدولة الإسلامية، ولم يحصل عليها بالأماني والأحلام العذبة، حتى ولا بالمعجزات من السماء التي ينتظر كثير من مسلمي العصر الحاضر أن تحدث بين عشيّة وضحاها، لأنّ معجزة إقامة الدولة الإسلامية لم تحدث حتى للرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وهو أكرم الخلق على الله سبحانه وتعالى، وإلى هؤلاء الّذين يحلمون بحدوث المعجزة، نقول: "لستم أكرم على الله من الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم."
هذا الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم ذاق الأمَرَّيْن من أجل إعلاء كلمة الحقّ وإقامة الدولة الإسلاميّة، لقد ضُربَ، وعُذّبَ بالجوع، والمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية، لدرجة أنّ القاذورات أُلقِيَت على جسده الطاهر الشريف، وجاع، وشُرِّد، وحوربَ، وجُرحَ في المعركة، حتى كاد أن يُقْتَلَ لولا أن رَحِمَ ربُّكَ.
إنّه صام، وصلّى، وتعبَّد، وتهجَّد، وفي نفس الوقت، عمل، وجاهد، وحارب، وخاض المعارك على رأس جيشه، لقد قاد بنفسه الشريفة المباركة تسع عشرة غزوة، وفي إحداها صلّى "صلاة الخوف" بوحي من الله سبحانه وتعالى، حرصاً على حياة جنوده وأتباعه، الّذين كان من بينهم التجّار، والمزارعون، والصنّاع،

ورعاة الإبل والخيل والغنم، فهؤلاء هم جيش الشعب، المؤمنون حقاً، الذين عملوا بقول الله سبحانه وتعالى: (وَٱبْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرَةَ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا.)

ففازوا بخَيْرَي الدّنيا والآخرة، وكانوا بحقّ خير أمّة أخرجت للنّاس يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ويؤمنون بالله.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ربّنا! تَقبّل منّا عملنا هذا، خالصاً لوجهك الكريم!

ووفِّقنا لما تحبّه، وترضاه، يا أرحم الراحمين!

(رَبَّنا! لا تُؤَاخِذْنا إِنْ نَسِينا، أَوْ أَخْطَأْنا.

رَبَّنا! وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً، كَما حَمَلْتَهُ عَلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا.

رَبَّنا! وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ.

وَٱعْفُ عَنَّا! وَٱغْفِرْ لَنا! وَٱرْحَمْنا!

أَنْتَ مَوْلانا، فانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.)

(وآخر دعوانا: أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ)